

فرید اللطیفی فناںِ اُحبتِ کلِ مہرِ سی



بقلم : محمود الشریف

obeikandi.com



لا تسألوني عن بدايته . .

فقد كانت بداية فريد الأطرش متواضعة . . وأكثر من متواضعة . لم يكن من بين مجموعة أصدقائه ورفاقه الأول - وأنا من بينهم - من تنبأ له بمستقبل فني . . أو بأى مستقبل على الإطلاق ! كان فريد من البداية مدللاً جداً . . وكان بدوره يحب من الذين حوله أن يدلوه تماماً . . وكان إقباله على الحياة منقطع النظير . إن إنساناً يغمس في الحياة بهذا الشكل ، لا بد أن يجعل أصدقاءه يتساءلون : متى يتفرغ للعمل ؟

ولقد ظل هذا السؤال ملتصقاً بفريد الأطرش من أول يوم حتى آخر يوم في حياته . فلم يكن فريد يخطط لحياته أبداً . . وحتى إذا حدث وخطط لها . . فإن لكل شيء في خطته مكاناً . . إلا العمل !

ولا تسألوني عن فنه . .

فقد كان فريد الأطرش ، ولا يزال ، يملأ بالفن كل الأسماع والقلوب . . على مدى أجيال وأجيال .

إن بعض الناس يولدون وفهم حرارة المجد بقدر معلوم . . فيمضون في الحياة قدماً صوب قمته . . فلا تلبث الأشواك أن ترجعهم وتدمى أقدامهم . . فيسقطون صرعى في الطريق الدامى . . أو ينحرفون طلباً للخلاص والنجاة . . تائهين في الطريق

الآخر المجاور تماماً لطريق المجد . . أما القليلون الذين يصمدون من هؤلاء . .
 فيمضون في الطريق . . تدمى الأشواك أقدامهم أحياناً . . وتنكسر الأشواك تحت
 أقدامهم أحياناً . . ولكنهم يصلون حتماً إلى نهاية الطريق .
 وهذا هو ما حدث لفريد الأطرش .

كنت قد حضرت من الإسكندرية إلى القاهرة في نهاية الثلاثينات ، وبتوصية
 من صديق لي يعرف السيدة بديعة مصابني . . استطعت أن ألتحق مطرباً بفرقتها . .
 وأن أبدأ فوراً في الاشتراك في استعدادهم للموسم الشتوى . . وهو الموسم الذى كان
 على الأبواب وقتها . . وكان استعدادهم له يجرى على قدم وساق .
 ومن بين هذا الحشد الهائل من مثلين وممثلات . . وموسيقيين وراقصات . ومطربين
 وعازفين ومطربات . . لفت نظرى شاب فى العشرين من عمره . . وسيم الطلعة . .
 نبيل القسيات . . حاد الملامح .

كان هذا الشاب هو فريد الأطرش .
 وكنت أراه وسط هؤلاء . . متأبطاً عوده دائماً فى فخروثقة واعتزاز .
 كان نجوم الغناء فى صالة بديعة وقتها أربعة : إبراهيم حموده . . بصوته الجهورى ،
 وأناقته الزائدة ، وجمهوره العريض . . ثم محمد عبد المطلب . . بصوته العذب
 النفاذ . . وأغانيه المحبوبة ، وشعبيته الساخنة . . ثم فريد الأطرش . . بصوته الناشئ
 غير المستقر بعد . . ووسامته الروحية . . وأغانيه السورية واللبنانية ، وغيرها من الألوان
 الشعبية الفولكلورية ، وبعرفه الممتع المعجز . . وجمهوره الذى ما زال بعد فى بداية
 نموه .

أما رابعهم فكان سيد فوزى . الذى كنا نسميه وقتها « مطرب الطوارئ » . .
 فهو المطرب الاحتياطى دائماً !
 وعند انضمامي للفرقة عند بديعة مصابني . . كان طموحى قد صور لى بأننى سوف

أكون بغير شرك النجم الأول في عالم الطرب .

ولكن التصور شيء . . والحقيقة شيء آخر .

لقد تحولت من مطرب إلى عازف عود متواضع . . وفي أغلب الأحوال كان يسند إلى بعض الأدوار الثانوية لكي أقوم بتمثيلها في الروايات والاستكشاث .

ولم يكن فريد الأطرش يتم التعامل معه في هذا الجو كله باعتباره مطرباً . . وإنما كانت صفته البارزة فيه وقتها هي أنه عازف على « العود » . إنه ، في معظم الأحيان ، يصعد إلى المسرح لكي يقدم عزفاً مصاحبة المطرب الأول للفرقة . . وهو إبراهيم حمودة ربما من أجل هذا كان فريد الأطرش مقلداً وقتها في ظهوره على المسرح . . بل إنه لم يكن داخلًا في البرنامج الثابت والمنظم للعمل .

وكانت السيدة بديدة مصابني تدله . . وتخصه بمعاملة متميزة . . ولا تضيق عليه لهذا تركت له حرية الظهور عند ما يشاء . . وفي الوقت الذي يريد . . إنني عرفت فيما بعد أنها تركت له - بهذه الطريقة - فسحة من الوقت لكي يمارس دراسته الموسيقية والفنية في المعهد صباحاً . . وبعد الظهر عند أستاذه الموسيقار الإيطالي . . الذي كان فريد يتلقى عنده وقتها دروسه الخصوصية في الغناء .

وفي الوقت نفسه كان فريد كثير التردد على مقهى المطرب محمد العربي . . وكانت تربطهما صداقة حميمة . . فكان فريد يجلس الساعات الطوال وهو يستمع لصديقه ويحفظ عنه طريقة أدائه وأغانيه وموايله البلدية والشعبية الأصيلة .

كان فريد من بدايته شغوفاً بالموسيقى . . وبالغناء . . والرقص . . والحياة . . والناس . . والأشياء ، وكأنه كان منفذ وصية مدام « ماري كروللي » التي تقول :

« حاول أن تبسم . . فإذا كنت وحيداً في الحياة فلا أقل من أن تغني أو تترنم بأحد الألحان . . مثل في الحياة دور الرجل السعيد الذي يملك مليوناً من الدولارات وعشرات السيارات الفارهة . . أضحكك من كل قلبك . . وأحب من كل قلبك . .

فريد الأطرش

أحب الزهور والشمس والأمطار والبحار . . وأحب كل شيء ، حتى الرذيلة والشقاء والدموع والموت . . !

لم تكن هناك فرص عملية كثيرة لعقد صداقة بين فريد الأطرش وبينى . . ولكن ، كانت هناك ألفة بيننا . . تنبعث من زمالة ثلاث سنوات مستمرة . . جعلت الألفة في النهاية دائمة . . والفهم مشتركاً . . والتفاهم قائماً .

كان تفاهماً مقروناً بالمحبة والتقدير والاحترام والأهم من ذلك ، بالاستمرار . كان فريد إنساناً غير عادى فى كل شيء . . بل إنه كان مجموعة ضخمة من المتناقضات . غير أن الصفة الغالبة على كل هذه المتناقضات كانت مركزة فى جملة واحدة . . وهى أن فريد الأطرش كان إنساناً له نبل الفارس . . ورقة الفنان . . إننى أذكر له موقفاً بالذات حدث معى . . وهو موقف يؤكد ما سبق أن قلته عنه فى البداية .

لقد حدث ذات مرة أن عهد إلى بدور غنائى فى اسكتش غنائى عنوانه « قلم المرور » . . من تأليف الروائى المعروف الأستاذ أمين صدق ، وتلحين الأستاذ عزت الجاهلى .

وفى ليلة الافتتاح وقفت داخل المسرح استعداداً للدور . لقد ارتفع الستار وبدأ روبداً . . ثم بدأ الأوركسترا يعزف المقدمة الموسيقية استعداداً للغناء . .

ولكن الذى حدث لحظتها هو أننى لم أعثر على بداية اللحن ، الذى تبخر تماماً من رأسى . إننى - فجأة - لم أعد أذكر منه جملة واحدة على الإطلاق !

ولك أيها القارئ العزيز أن تتصور موقفى . . ومدى الورطة التى وقعت فيها . . والارتباك الذى أحسست به . . وأنا أقف أمام الجمهور ووجهاً لوجه .

لقد راح الأوركسترا يكرر اللازمة الموسيقية مرة بعد الأخرى . دون جدوى . إننى حاولت وحاولت أن أخرج من تلك الورطة . . بلا فائدة . لقد أصبحت واقفاً

فى جمود يغلبنى الذهول . . وتسيطر على المفاجأة . ويتصبب العرق فوق وجهى .
بغير أن أنجح فى أن أقول كلمة واحدة !

وبينما أنا على هذا الحال . . إذ بى أسمع فجأة صوتاً قادماً من خلئى . . يدس لى
ويصب فى أذنى بداية اللحن . . !

وفوراً . . استطعت أن ألتقط منه البداية . . وبدأت أغنى . . والصوت خلئى
مستمراً مساندى . . إلى أن انتهت من الغناء بسلام . .

وفى النهاية ، عند نزول الستار ، رحت أتلفت حولى . . وإذا الصوت القادم
من الخلف هو صوت فريد الأطرش . . الذى رأيته ما زال مستمراً فى وقفته . . غارقاً
فى الضحك . قائللى مداعباً : « علقة نفوت ماحد يموت يا أبوحنى ! »

إن تلك الصورة الإنسانية تقفز إلى ذهنى فوراً . . بمجرد أن أتذكر فريد الفنان
الإنسان . . والإنسان الفنان .

إن فريد لم يلحن لحناً واحداً فى حياته لفرقة بديدة . . فلم يكن هناك تسليم بعد
بموهبة الموسيقى . ومع ذلك كنت تراه يحتو على - ويرعى - جميع الألحان التى
تؤدى على المسرح . . وكأنها جميعاً من تلحينه ، إنه - إذا لم يكن يعزف يعوده
فوق المسرح - كان هناك دائماً بين الكواليس . . مساهماً بصوته . . مساعداً للجميع . .
ومشجعاً لهم . . بروح سخية وقلب كبير . . مدفوعاً بحبه للفن . . الذى أعطاه عمره
فوجه الخلود .

إننى أذكر أن فريد الأطرش جاء ذات مساء . . وفى يده نوتة من قطعة موسيقية . .
وذهب بها إلى « مسيو دافيد » رئيس الأوركسترا . لقد وضع النوتة أمامه . . وطلب منه أن
يعزفها . . وكان ذلك وقت الاستراحة .

وسمعت السيدة بديدة العزف . . ولم تمالك نفسها من فرط المتعة . . فأسرعت
وراحت تسأله : ما هذا يا فريد ؟

رد فريد عليها قائلاً : هذه أحدث موسيقى لأحدث رقصة ظهرت فى العالم اليوم .

كانت الرقصة حديثة جداً فعلاً ، وكان اسمها « لاکو کارتشا » وقد أصر فريد لأول مرة على أن يقوم بدور الراقص . . وأن يقدمها للجُمهور فى شكل ثلاثى بَشَرَك هو فيه مع السيدة بدیعة . . ومع مدرب الرقص « مسیو ایدى » .
وفعلاً ، كان هذا هو ما حدث ، وقد لاقت الفكرة نجاحاً منقطع النظير .

كان فريد فناناً عنيداً طموحاً لا يعرف اليأس ولا التردد ولا يعترف بالمستحيل .
كان يتخذ من عمله وسيلة وهدفاً ومتعة يعوض بها كل شئ آخر . وكان لديه الإصرار على الاستمرار . . وبرغم المראה التى كان يحس بها بسبب المناخ الذى يعمل فيه وهو غير راض عنه . . والذى وجد نفسه مضطراً لأن يعمل فيه من أجل لقمة العيش .
إن البلبل المغردة لا بد أن تهبط من السماء لكى تمرغ أنفها فى التراب والطين تبحث عن طعامها . وبرغم أنها تحلق فى الفضاء وتسبح بين السحاب والغمام فإن لها هى الأخرى لحظاتها من اليأس والتردد والتوقف عن الغناء .
ولكن فريداً لم يتوقف أبداً عن الغناء .

لقد كان بطبعه سهلاً متسامحاً لا تغير صفاء الأمور . . متواضعاً إلى أقصى درجات التواضع . . الفن عنده رسالة ومسئولية وكرامة . إن كرامة الفنان عنده مصونة لم تمس . . ما دام الفنان لا يمد يده لأحد .

ولم يكن فريد ، رغم تعلقه منذ بدايته بالغناء ، يرى أى غضاضة فى أن يقوم بدور العازف على العود لمن هم أقل منه شأنًا . . ما دام يريد ذلك .

ولقد كانت لديه قدرة كبيرة على إخفاء ألمه وكظم غيظه . . لكن بشرف وبغير حقد ولا حسد ولا رياء . . وذلك هو الذى جعله يرتفع فوق كل ما صادفه فى حياته من نكسات وفواجع . إن فاجعة واحدة فى حياته - هى موت شقيقته المرحومة أسمهان -

كانت وحدها كفيلة بتخطيطه إلى الأبد . . وبخاصة أن أسمهان لعبت دوراً حاسماً في شق طريق المستقبل أمام فريد في بدايته .
ولكن فريداً ضرب ، في تحمله لتلك الفجيرة ، المثل على صدق القول المأثور :
إن العبقري هو الذى يتأثر من البؤس بالعمل . . ومن الحب بالفن . . ومن المرأة بالمجد . .
ومن الموت بالحياة . .

وقد لا يعرف الكثيرون أن بعض عمالقة العازفين الآن كانوا يعملون في تلك الفترة ، - وما تلاها - عند بديعة مصابني . . خصوصاً عند ما قرر فريد أن يغنى في حفلاتى الماتينية كل أسبوع . من هؤلاء العازفين الأساتذة أحمد الحفناوى . . وأنور منسى . . ويعقوب طانيوس . . وإبراهيم عفيفي . . وغيرهم . ولقد ظل فريد على وفائه لهم - وصداقته معهم - بعد أن شق طريقه أخيراً بعيداً عن كازينو بديعة . . بالحفلات الشهرية في الإذاعة وغيرها . . وفي جميع أفلامه السينمائية التى أنتجها . . كان دائماً يتمسك بهم . . من أول لحظة حتى آخر لحظة في حياته .

ولقد كان آخر ما غناه فريد على مسرح بديعة هو اشتراكه كواحد من ثلاثي يضم بديعة وإبراهيم حمودة باسم « الدكتور والمحامي وبدعدع » !
وكانت أول فرصة فنية حقيقية لفريد . . وهى الفرصة التى كشف فيها عن مواهبه الفذة كعازف عود . . عندما قدم الأستاذ مدحت عاصم « الفرسان الثلاثة » . . وهى معزوفة بأساليب هرمونية وكونتر باصية . . لم تكن قد دخلت بعد إلى عالم الغناء العربى .

وكان « الفرسان الثلاثة » هم فريد الأطرش . . وفريد غصن . . ومدحت عاصم .
وقد تلى ذلك الحفل الذى أقامته الإذاعة عند قاعدة الهرم . . وقدمت فيها فقرات ترفيهية وفنية مختلفة . وكان نجم الحفل هو فريد الأطرش عندما غنى « عشك يا بلبل دا جنة » وغيرها من الأغاني الحديثة في ذلك الحين .

وكانت آخر كلمة قالها فريد لبديعة عندما اختلفا معاً بسبب امتناع فريد عن السفر مع الفرقة إلى شمال أفريقيا هي : اسمعى . . الفن له كرامة . . وأنا شاب على أبواب الحياة . . وكرامتي في الذروة .

وبذلك بدأ فريد سلم المجد . . عندما انطلق في عالمه الرحيب . . لكي يقدم للعالم العربي أروع الألحان وأعذب الأناشيد وأحلى الأغنيات . . ثم شارك في نهضة السينما بإنتاجه الرفيع . . حتى أصبح علماً من أعلام النهضة الفنية ورائداً من أعظم الرواد الذين أثروا حياتنا الموسيقية والغنائية .

ومع ذلك كله . . فإن أى تقييم لفريد الأطرش لا يمكن بأى حال أن يغفل من حياته الأثر الفني والإنساني . الذى تركته فيه تلك الفترة الأولى المبكرة من عمله مع فرقة بديعة مصابنى .

وإذا لم تكن لتلك الفترة أية ميزة سوى أنها أكدت إحساسه بذوق الجمهور . . فإنها تكون قد حققت الفائدة في حياة فريد . . بمثل ما حققت في حياة الآخرين الذين بدءوا مع فريد البداية نفسها .

أما القيمة الفنية الحقيقية لفريد الأطرش فلم تبدأ طبعاً إلا مع خروجه من فرقة بديعة مصابنى . .

لقد كان أول لحن حقق له النجاح والانتشار معاً هو لحنه المشهور « ليالى الأنس في فيينا » . . الذى غنته أسمهان في فيلم « غرام وانتقام » .

كانت أسمهان هي في الواقع نموذجاً رائعاً للأخت التي تشغل نفسها تماماً بمستقبل أخيها . . لقد كانت هي أكثر من أحس بفريد وفهمه وعرف تماماً حجم موهبته . . وبالتالي حجم الفرصة التي يحتاج إليها لإخراج تلك الموهبة إلى الناس .

كانت أسمهان موهبة صوتية فذة . . وكانت تمثل فعلاً لوناً صوتياً وغنائياً متميزاً ، لم يألفه الناس من قبل ، مع أنهم بمجرد أن يسمعوها غناءها كانوا يألفونها فوراً . . إن

أسمهان المطربة كانت تشجى الناس حقاً . . وتؤثر فيهم تماماً . . ومن يسمعها مرة . . لم يكن يقدر له أن ينساها بعد ذلك مطلقاً .

وقد ساعدت أسمهان أخاها فريداً مرتين : مرة بصوتها الناجح المتع المنتشر . . ومرة بحجم الفرص التي كانت تفتتها لفريد وتدفعه هو أيضاً إليها .

من أجل هذا كانت خسارة فريد بموت أسمهان خسارة مضاعفة . إنها خسارة عاطفية لأخت . . وفوق ذلك خسارة عاطفية لشريكة فن ومستقبل .

وكما ذكرت من قبل ، فإن فريد استطاع مع الوقت والإرادة ، أن يتغلب على تلك الفجعية الشخصية ويدفنها في داخله . . منطلقاً لتحقيق ذاته في المجال الفني العريض والخصب الذي انشقى أمامه وشقه لنفسه .

إن موهبة فريد الموسيقية ، التي اعترض كثيرون عليها في البداية ، قد بدأت مع العمل والنجاح والزمن تتألق تماماً . . بحيث إننا نعلم جميعاً مدى النجاح الشعبي الذي حققته ألبانه مثل « أول همسة » و « الربيع » و . . أخواتها .

وربما تكون تلك الأغاني هي من الحالات القليلة في الغناء العربي التي لم ينتقص الزمن من حلاوتها ولا من عذوبة موسيقاها . . بل أضاف إليها جمالا فوق جمال .

أما فريد كصوت يطرب الأسماع والأفئدة . . فلقد كان يتميز في الواقع بصفات ممتازة كثيرة . . لم يكن يقلل منها طابع الحزن الذي اتسم به سنوات طويلة .

إن المستمع يستمع إلى صوت يغنى لأنه يعطيه في الحقيقة متعة معينة : إنه يشعر بالفرحة معه . . أو بالتفاؤل . . أو بجمال الدنيا . . أو بإشراق الحياة . . أو بحلاوة المستقبل . . أو بالنشوة . . أو بالمرارة . . وفريد الأطرش لم يكن يتعمد المرارة في صوته وأغانيه ، لقد كانت المرارة موجودة فعلا ، وبأحجام كبيرة ، في حياة فريد . إنه كان يحاول طبعاً التغلب عليها . . عن طريق النوع الخاص من الحياة الذي اختاره لنفسه . . حياة فيها من المتعة والانشرح والغرام والحب والتفاؤل والتسلية واللهو ما يجعل الإنسان

يتساءل في النهاية : متى إذن يجد فريد الأطرش وقتاً للعمل ؟ أو . . من أى ثقب في حياته الصاخبة خرجت كل تلك الأغاني والألحان والاستعراضات ؟ ولكن . . ذلك كان مجرد واحد من المتناقضات الكثيرة التي احتشدت بها حياة فريد الأطرش ، منذ نفس اللحظة الأولى التي عرفته فيها .

ومنذ عرفت فريداً كعازف ومطرب وملحن موهوب . . فإنني عرفت فيه أيضاً «المستمع الموهوب» ! إنه يعرف بالضبط - بإحساس الفنان الحقيقي - كيف يستمع لأعمال غيره . . وكيف يفعل بها بغير أن تؤثر هي عليه . . وكيف يرى فيها نواحي الجمال والمتعة قبل أى شيء آخر . إنه لم يكن يجد غضاضة أبداً في أن يعترف لغيره مرة بأنه تفوق عليه . . أو بأنه بلغ القمة في عمل من الأعمال . . ذلك لأن فريداً في داخله لم يكن غيوراً بأى حال من الأحوال . . ولا كان حاقداً أو شريراً أو خبيثاً . . وبالعكس هذا كله . . كان فريد طيب القلب دائماً . . تقى الضمير دائماً . . صافى النفس دائماً . .

* * *

وأخيراً . .

إننى لا أظن أن هناك من ينكر أن الذين جاءوا بعد سيد درويش قد أضافوا الكثير . . وعمقوا الكثير . . وقدموا الكثير . . وضوروا الكثير . .

ولسوف يأتي غيرهم . . لكى يضيفوا ، ويعمقوا ، ويقدموا ، ويطوروا الكثير أيضاً . .

فن غير المعقول إذن أن يقف التقييم الموسيقى أو الفنى عندنا . . عند سيد درويش . . وإلا فإن معنى ذلك هو الحكم من الآن باستحالة تطوير الغناء العربى أو تجديد الموسيقى الشرقية .

وليس من شك في أن الذين جاءوا بعد سيد درويش لم يكونوا بأى حال من الأحوال
 نسخاً منه . . ولا كانوا صدى لأحد ممن سبقهم . . إنهم - في الحقيقة - استطاعوا أن
 يقفوا بفنهم إلى جانب من سبقوهم بما قدموه من أعمال جديدة تحمل لون وطعم ومذاق
 وإبداع جيلهم هم .

وفي هذا المجال . . فإن فريد الأطرش هو بغير جدال واحد من هؤلاء . .

محمود الشريف

